

واقع الأقليات ببلاد المغرب قراءة في نوازل "المعيار المغرب" لأحمد الونشريسي.

ط/ سعيداني لخضر – طالب دكتوراه ⁽¹⁾
جامعة محمد بن أحمد - وهران 2
أ.د/ عمر بلبشير – أستاذ ⁽²⁾
جامعة مصطفى اسطنبولي - معسكر

ملخص:

تشكّل القضايا المرتبطة بالأقليات اهتماما بالغا على المستوى الدولي حيث تسعى مختلف الأمم الى ابراز رصيدها الثقافي المتعلق بموضوع التعامل مع مختلف الأقليات، في ظل الأهمية التي توليها المنظمات الدولية لها، وعلى مستوى التأليف الفقهي تبرز نصوص مختلفة تساعد الباحثين لابرار مسيرة الحضارة الإسلامية في التعامل مع الأقليات، ويعد كتاب المعيار المغرب لأحمد الونشريسي من أهم النماذج التي يمكنها أن تقدم لنا مادة مهمة بخصوص الأقليات ووضعها داخل المجتمع في بلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية: الأقليات، أحمد الونشريسي، المعيار المغرب، أهل الذمة.

Résumé:

Les questions relatives aux minorités présentent un grand intérêt au niveau international, les différentes nations cherchant à mettre en valeur leur patrimoine culturel en matière de relations avec différentes minorités, compte tenu de l'importance que les organisations internationales leur

¹ - طالب دكتوراه، مدرسة الدكتوراه الدين والمجتمع، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد.

² - أستاذ التاريخ الوسيط، جامعة معسكر.

attachent. Minorités, et le livre Al –Miyar d'al Wancharissi est l'un des modèles les plus importants qui peuvent nous fournir un matériau important sur les minorités et les intégrer dans la communauté maghrébine.

Mots-clés: Les Minorités , Ahmed Al Wancharissi , Al-Miyar Almurib, Les gens du livre.

1- التعريف بأحمد بن يحيى الونشريسي، ومؤلفه "المعيار المغرب":

ولد أحمد بن يحيى الونشريسي، بجبال ونشريس عام 834¹. نشأ بتلمسان حيث درس على يد أشهر علمائها، ومنهم أبو عبد الله محمد بن العباس، وقاسم بن سعيد العقباني، وإبراهيم العقباني، وابن مرزوق الكفيف وابن الجلاب، ولما بلغ الأربعين من عمره، هاجر إلى فاس، بعد حادثة له مع السلطان الزياني، الذي أمر بتهيب داره، وذلك لأنه كان ميّالا للحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم.

وبفاس لقي الونشريسي ترحابا وافرا من فقهاءها وطلبتها، حيث أقبل على التدريس هناك، وقد اختص بالمدونة ومختصر ابن الحاجب الفرعي، حيث تخرج على يديه عدد وافر من الطلبة الذين بلغوا مرتبة عالية في القضاء والفتيا والتدريس، ومن أبرزهم، ابنه عبد الواحد الونشريسي، ومحمد بن الغريديس التغلبي، ومحمد بن عبد الجبار الوردغيري، والحسن بن عثمان التيميلي⁽¹⁾.

لقد حصل الونشريسي على ثناء مختلف المصادر التي ترجمت له، فقد وصفه ابن مريم التلمساني في مؤلفه البستان: بحامل لواء المذهب على راس المائة التاسعة، وأضاف قائلا: "كان مشاركا في فنون العلم إلا أنه لما لازم

¹ - الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981 صصاً، ب، ج، د

تدريس الفقه يقول من لا يعرفه انه لا يعرف غيره، وكان فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضره يقول لو حضر سبويه لأخذ النحو من فيه..⁽¹⁾.

أما ابن عسكر فقد وصفه في مؤلفه "دوحة الناشر" الإمام العالم العلامة المصنف الأبرع، الفقيه الأكمل الأرفع، البحر الزاخر، والكوكب الباهر، حجة المغاربة على أهل الأقاليم، وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عالم، ويضيف ابن عسكر قائلا: "... كان شديد الشكيمة في دين الله لا تأخذه في الله لومة لائم ولذلك لم يكثر له مع أمراء وقته كثير اتصال"⁽²⁾ أما ابن مريم التلمساني فيقول بشأن هذه الحادثة "... حصلت له كائنة من جهة السلطان في أول محرم عام أربعة وسبعين فأنهت داره ففرّ إلى مدينة فاس واستوطنها..⁽³⁾.

يعد كتاب المعيار من أشهر كتب النوازل الفقهية في الغرب الإسلامي حيث يأتي في مقدمة المصادر الفقهية المالكية التي احتوت نصيبا هاما من الاسئلة التي رفعت الى الفقهاء للإجابة عنها، وقد تنوعت هذه الاسئلة حيث شملت مختلف مناحي الحياة اليومية، وقد استفاد الونشريسي أثناء إقامته بفاس من مكتبة تلميذه الغرديس التغلبي ليؤلف كتاب " المعيار " حيث اعتمد على ما وجده من مخطوطات خاصة بنوازل الأندلس والمغرب الأقصى، أما فيما يخص المغربيين الأدنى والأوسط فقد اعتمد على نوازل كل من البرزلي والمغيلي المازوني صاحب كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة⁽⁴⁾.

¹ - ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان :تج: محمد بن أبي شنب ، د م ج ، الجزائر، 1986، ص 53

² - ابن عسكر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ، 1977 ، ص 47

³ - ابن مريم التلمساني:المصدر السابق، ص 53

⁴ - الونشريسي:المصدر السابق، ج 1 ص و.

أثبت الونشريسي في كتابه هذا أسماء المفتين ونصوص الاسئلة الموجهة اليهم، وكان يذكر الإجابة أحيانا دون التطرق الى نص السؤال كاملا، وقد تكررت هذه الفتاوى أحيانا أخرى في نصوص المعيار حسب أبواب الفقه، وقد ذيل الونشريسي مؤلفه بذكر تاريخ الانتهاء من تأليفه قائلا: "وكان الفراغ من تقييده مع مزاحمة الأشغال وتغير الأحوال يوم الأحد الثامن والعشرين لشوال عام واحد وتسعمائة.." (1).

أما عن سبب التأليف فقد صرح الونشريسي قائلا: "وبعد فهذا كتاب سميت به بالمعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، جمعت فيه من أجوبة متأخريهم العصريين ومتقدمهم ما يعسر الوقوف على أكثره في أماكنه، واستخرجه من مكانه لتبذره وتفريقه وانهمام محلّه وطريقه رغبة في عموم النفع به ومضاعفة الأجر بسببه" (2).

ومن هنا نستخلص أن الغرض من تأليف هذا المؤلف هو رغبة الونشريسي في جمع مادة مهمة خاصة بمختلف النوازل الفقهية من أجل تسهيل الاستفادة منها لاحقا لتحصيل المنفعة العامة.

خلف الونشريسي عددا معتبرا من المؤلفات ومن أشهرها كتاب المعيار المغرب، وتعليق على ابن الحاجب الفرعي، وغنية المعاصر والتالي في شرح وثائق الفشتالي، وكتاب القواعد في الفقه والفائق في أحكام الوثائق وتأليف في الفروق في مسائل الفقه، وكانت وفاته عام 914 هـ، وكان عمره نحو ثمانين سنة (3).

تضمن كتاب المعيار المغرب اثنا عشر جزءا مقسمة حسب أبواب الفقه فقد خصص الجزء الأول إلى الفتاوى الخاصة بالعبادات كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم.

¹ - الونشريسي: نفسه، ج 1 ص ر

² - الونشريسي: نفسه، ج 1 ص 1

³ - ابن مريم التلمساني: المصدر السابق، ص 54

أما الجزء الثاني فقد خصص إلى فقه المعاملات كالأطعمة والاشربة والصيد.

بينما احتوى كل من الجزء الثالث والرابع على نوازل النكاح وما يتعلق به. كما اختص الجزئين الخامس والسادس على قضايا الاقتصاد ومختلف مظاهره مثل البيوع والرهن.

أما الجزء السابع فقد خصص إلى الأحباس والأوقاف.

بينما احتوى الجزء الثامن والجزء التاسع على نوازل تتعلق بالجانب الفلاحي مثل مليكة الأرض والمشاكل المتعلقة بها مثل الشفعة والبيع والرهن. أما الجزء العاشر فقد ضم نوازل ترتبط بقضايا الأفضية والشهادات والوكالات.

أما الجزئين الحادي عشر والثاني عشر فقد جمع فيهما الونشريسي قضايا لا ترتبط بالأبواب السابقة، وهي عبارة عن قضايا عامة في مختلف المجالات⁽¹⁾.

2- مصطلح أهل الذمة:

- الذمة في اللغة، الذمة بالكسر: العهد والكفالة⁽²⁾، والذمة: العهد والأمان والضمان وأهل الذمة هو المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية، فامنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وأصبحوا في ذمة المسلمين ومن واجباتهم في بلاد المسلمين ضمن عقد الجزية احترام القرآن والرسول الكريم، وعدم القدح في الإسلام وعدم ثني المسلمين عن دينهم، وعدم إعانة أهل الحرب، إضافة إلى لبس الزنار والغيار، وعدم ضرب

¹ - عمر بلشير: حجة المغاربة، أبو العباس الونشريسي ومعلمته النوازلية، دراسة في منهجه وموارده وأهميته، دار النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2017، صص 117، 116.

² - الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص 597.

النواقيس وعدم المجاهرة بالخمور وركوب الخيل واحداث الكنائس، أما الحقوق المفردة لهم فهي الحماية لهم وعدم التعرض لهم ولأموالهم واعفاء الصبيان والعبيد منه والأطفال من دفع الجزية التي لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء⁽¹⁾.

3- مصطلح الأقليات:

لم يكن مصطلح الأقلية معروفا في الثقافات القديمة، غير أن ذلك لا يعني أنه لم يكن موجودا، فعلى مستوى العالم الإسلامي عرف هذا الأخير التجزئة تحت مسميات مختلفة ومنها: أهل الذمة، الجالية، أهل الصلح، أهل الموادة، المستأمنون، وقد خصّصت كتب الفقه جانبا من الأحكام الفقهية لهذه الجماعات⁽²⁾.

شكل مفهوم الأقليات أهمية بارزة في تاريخ الفكر الحديث، إذ تصدّر مختلف التقارير والنشريات في مجال حقوق الإنسان، وقد تعددت جملة من المعايير التي يمكننا من خلالها الوصول الى تعريف خاص بالأقليات، ومن أهم هذه المعايير نذكر:

1- العدد: حيث يجب أن يكون عدد الأقليات أقل من عدد السكان الذين يمثلون الأغلبية

2- عدم الهيمنة: حيث تكون الأقلية في وضع غير مهيمن.

¹ - الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت،

ط1، صص 184، 185

² - نور الدين حمادي: فقه الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم

الإسلامية، ع 01، مج 30، 2016، ص 232

3- الشعور بالاختلاف: من حيث اللغة والإثن أو الدين أو القومية أو الثقافة، وهذا ما يميزها عن الأغلبية⁽¹⁾، وعليه يمكن القول أن الأقلية هي مجموعة قومية أو إثنية أو دينية أو لغوية تختلف عن المجموعات الأخرى الموجودة داخل دولة ذات سيادة⁽²⁾.

4- قضايا الأقليات، من خلال كتاب "المعيار المغرب" للونشريسي:

لقد تعددت الفتاوى والأسئلة التي شكلت نموذجا مهما لدراسة واقع الأقليات الدينية ضمن المجتمع في بلاد المغرب، حيث مسّت جوانب مختلفة تركزت في مجملها في مسائل التعايش والمعاملات، ومكانة الأقليات داخل منظومة المهن والحرف، وقد أخذ الفقهاء على عاتقهم مسألة الخوض في هذه الأسئلة التي شكلت تحديا شرعيا بالنسبة لهم، وهذا ما يعطي صورة واضحة عن الحركية التي تميزت بها هذه الفئات، داخل المجتمع ببلاد المغرب والأندلس.

حظيت الأقليات الدينية بمستوى مهم من الجدل الديني داخل المجتمع في بلاد المغرب والأندلس، وقد شكلت قضايا عديدة نماذج هامة لهذه الحركة بقاء بعض النصارى على دينهم رغم إعلان إسلامهم، حيث تعرض ابن رشد إلى هذه القضية مؤكدا على وجوب إتباع البينة وتحري الحقائق بخصوصها، كما تضاف إلى هذه القضية مسألة تعرض بعض النصارى واليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم⁽³⁾.

¹ - ختال هاجر، قاسمي آمال: ضمانات حماية حقوق الأقليات بين القانون الدولي والفكر الإسلامي، مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية، ع 4، ديسمبر 2014، ص.ص 284، 283.

² - جمال الدين عطية محمد: نحو فقه جديد للأقليات، دار السلام للنشر، القاهرة، ط1، 2003، ص.ص 7، 8.

³ - الونشريسي: المصدر السابق، ج2، ص.ص 350، 351.

وقد طرحت قضية أخرى تتعلق بتنصر البعض وعودتهم من بلاد العدو ودخولهم الإسلام من جديد رفقة زوجاتهم النصرانيات، وهي القضية التي أثّرت بخصوص صحة هذا الزواج من عدمه⁽¹⁾.

ومن جانب آخر تعد القضايا المرتبطة بالنقاشات والمناظرات أهم مظهر من المظاهر التي ارتبطت بواقع الأقليات الدينية بالغرب الإسلامي، خاصة اليهود والنصارى، ومن أبرز هذه النماذج نذكر مناظرة يهودي مع الفقيه ابن لب في مسائل تتعلق بالقضاء والقدر، وقد أوردها الونشريسي في كتاب المعيار المغربي على شكل أبيات شعرية مذيّلة بإجابة الفقيه ابن لب⁽²⁾، كما جرت مناظرة أخرى بين الفقيه أبي عبد الله الشريف وأحد القساوسة بمدينة مرسية، وكانت على شكل ثلاث أسئلة، وهي المسألة التي قال عنها الونشريسي، ولهم حرص على مناظرة المسلمين، ويقصد بذلك القساوسة⁽³⁾.

أما على المستوى الاجتماعي فقد شكلت مسائل الجوار أبرز نموذج للتعبير عن حال الأقليات الدينية داخل الفضاء الإسلامي، ومن ذلك دعوة الفقهاء إلى المعاملة الحسنة مع الجيران اليهود، حيث يذكر الونشريسي إجابة أحد الفقهاء بشأن التعامل معهم قائلا: "فيسستقضيك في حاجة لا مأثم فيها، فتقضيها له فلا بأس"⁽⁴⁾، ومن تلك القضايا التي تتعلق بالجانب الاجتماعي الإشارة إلى سكنى بعض اليهود في أحياء المسلمين والتزود بالمياه من أبارهم، فرغم بعض التصرفات السلبية الصادرة منهم، أجاز الفقهاء لهم الحصول على الماء، أو كراء سكناتهم إذا ما تمادوا في ذلك، وهو إقرار مهم بحصول الأقليات على حق الملكية

¹ - الونشريسي: نفسه، ج 3، ص 250

² - الونشريسي: المصدر السابق، ج 11، ص 267، 266

³ - الونشريسي: نفسه، ج 11، ص 155، 154

⁴ - الونشريسي: نفسه، ج 11، ص 301

للسكن داخل الأحياء في مجتمع بلاد الغرب الإسلامي⁽¹⁾، كما أثار نصوص النوازل قضايا تتعلق بأحباس الأقليات من اليهود والنصارى، ومن ذلك مسألة الأحكام المرتبطة بالأموال المحبسة على بيع النصارى⁽²⁾.

وقد حظيت الأقليات بمساحة مهمة في مجال التعامل مع فئات المجتمع من خلال الروابط اليومية مع المسلمين، وهو ما تأكده تلك التساؤلات الخاصة بحكم قبول الهدايا منهم في أعيادهم، وتقديمها لجيرانهم المسلمين، وهو ما يتيح إمكانية رصد تداخل بين الطرفين على مستوى الإقامة في الأحياء⁽³⁾، كما يلتمس الباحث من نصوص المعيار وجود مساحة مهمة للتعامل الاقتصادي بين المسلمين والأقليات من خلال البيع والشراء، ومن ذلك إشارة الونشريسي إلى شراء مسلم جثانا من يهوديين وحيازتها لمدة عشرة أعوام، ثم حسمها على بنيه⁽⁴⁾، وفي هذا المجال أيضا تتكرر الإشارة إلى أمثلة كثيرة من المعاملات الاقتصادية مع الأقليات مثل بيع أصول الكرم للنصارى، وتخصيص بعض هؤلاء في بيع الخبز وغسل ثياب الناس، وتشبه بعض اليهود بأزياء المسلمين، وهي مسألة تحيل إلى القول بعدم احترام بعض الأقليات لعقد الذمة⁽⁵⁾، وقد فرضت المعاملة اليومية مع اليهود تساؤلات حول صحتها، حيث أشار الفقهاء إلى ضرورة النظر في طبيعة المعاملة وتحري صحتها، خاصة وأن معاملات اليهود تغلب عليها الربا، ومن هنا نستشف تسامح النص مع التعامل العام مع اليهود واقتصراره على التأكد من صحتها⁽⁶⁾، كما أجاز الفقهاء التعامل مع الأقليات بالقول بإباحة دراهمهم مع تحديد بعض الممنوعات من التعامل مثل المصحف

¹ - الونشريسي: نفسه، ج 8، ص 437

² - الونشريسي: نفسه، ج 8، ص 56

³ - الونشريسي: نفسه، ج 11، ص 111

⁴ - الونشريسي: نفسه، ج 7، ص 438

⁵ - الونشريسي: المصدر السابق، ج 6، ص 68، 69

⁶ - الونشريسي: نفسه، ج 6، ص 433

والخيل، وكل ما من شأنه إيقاع الضرر بالمسلمين⁽¹⁾، كما تتعد طرق التعامل بين المسلمين واليهود لتتجاوز البيع والشراء الى الاستدانة كما توضحه بعض النصوص في كتاب المعيار⁽²⁾، إضافة الى اللجوء الى الأطباء اليهود⁽³⁾.

وفي مجال التعامل مع اليهود أجاز الفقهاء مسألة طرحت عليهم، تتعلق بحكم استئجار ماء المسجد لبعض اليهود الذين يسكنون في درب ملاصق لمسجد، وقد قرر الفقهاء السماح بذلك مع ذكر بعض الشروط، كتثبيت السداد في الثمن⁽⁴⁾، كما تعرض الفقهاء لمسألة مماثلة لهذه القضية تتعلق بحكم استفادة اليهود من مياه نهر وسط البلد⁽⁵⁾.

وتشير نصوص أخرى ضمن نماذج عديدة من المعيار الى رغبة بعض اليهود في التقاضي لدى حكام المسلمين، وهو الأمر الذي لم يعارضه الفقهاء، خاصة للحالات التي أثبتت براءتها عبر وثائق عربية، وتعد فتوى ابن العطار نموذجا بارزا في هذا المجال⁽⁶⁾ وقد تكررت الإشارة الى هذه القضية في موضع لاحق من كتاب المعيار حيث أشار الونشريسي الى حصول بعض اليهود على وثائق منعقدة بالخط العربي وشهود المسلمين، وقد أشار الفقهاء الى النظر في هذه القضايا اذا رغب اليهود في ذلك، وهذا ما يمكننا من القول بأن تسامح الفقهاء مع طلبات اليهود للتقاضي عند المسلمين له دلالة عميقة في مجال التسامح الذي شهده المجتمع مع الأقليات خلال هذه الفترة⁽⁷⁾.

¹ - الونشريسي، نفسه، ج 5، 103

² - الونشريسي: نفسه، ج 5، ص 244

³ - الونشريسي: نفسه، ج 8، 319

⁴ - الونشريسي: نفسه، ج 7، ص 52

⁵ - الونشريسي: نفسه، ج 8، ص 433

⁶ - الونشريسي: نفسه، ج 10، 56

⁷ - الونشريسي: نفسه، ج 10، 128

لقد شكلت مسائل عديدة في كتاب المعيار المغرب دلالات معبرة عن الوضعية التي ميزت واقع الأقليات الدينية في بلاد المغرب، حيث حصلت على مساحة واسعة للانفتاح على مختلف شرائح المجتمع، وهو ما أدى إلى تزايد القضايا المطروحة على الفقهاء، خاصة في مجال تنظيم العلاقة بين الطرفين ولذلك يمكن اعتبار الأسئلة المرتبطة بهم أهم دلالة على وضعيتهم داخل البلاد الإسلامية، ومن هنا نلمس مدى مساهمة كتب النوازل الفقهية عامة، وبدرجة خاصة كتاب المعيار المغرب في كشف أوضاع الاقليات في بلاد المغرب.

الخاتمة:

إن دراسة المسألة المتعلقة بوضعية الأقليات اعتمادا على نصوص فقهية تؤرخ لمجتمع الغرب الإسلامي، تعتبر نافذة حية على الأدوار التي لعبتها هذه الفئات داخل الفضاء الإسلامي، وهو ما يتيح رصد عملية التعايش داخل المجتمع، من خلال حجم تلك التساؤلات الصادرة على شكل أسئلة لمعالجة مختلف القضايا التي اختصت بالأقليات الدينية .

وبالنظر الى الحجم الكبير من القضايا التي عالجها كتاب المعيار المغرب لأحمد الونشريسي، يمكننا القول أن هذه الفئة حظيت باهتمام بالغ من الفقهاء الذين حاولوا الأخذ بالأطر الشرعية لهذه الفئات، غير أن بعض القضايا ساهمت في تغليب الواقع الاجتماعي على الأطر الشرعية في كثير من الأحيان، وهذا ما يتضح من خلال بعض نصوص النوازل، وهو الأمر الذي يستدعي القول بأن هذه الأقليات حصلت على أوضاع ايجابية في كثير من الفترات، وهو المؤشر الايجابي لمجتمع بلاد الغرب الإسلامي يكرس بوضوح درجة مميزة من التعايش مع هذه الأقليات.

إن كتاب المعيار المغرب للونشريسي يشكل إضافة مهمة للباحثين في مجال الأقليات، حيث يمكن اعتباره مصدرا ثريا لتتبع أوضاع الأقليات الدينية، من

خلال تغطية بعض النقائص المتعلقة بهذه الفئة في كتب التاريخ العام، وهذا ما يمكننا من رصد مساهمة الحضارة العربية الإسلامية في ترسيخ قيم التعايش والتسامح.